سكَّان أُوستراليا الاصلِيُّون

أُوستراليا اعظم جزائر الارض اتساعًا فمساحة سطحها نحو ثلاثة آلاف ميل مربَّع ولكن عدد سكانها الاصليين نحو ثمانين الفًا فقط وهم آخذون في النقصان سريعًا وربما لم يطل زمان انقراضهم كثيرًا وقد هاجر الانكليز اليها منذ مئة سنة من الزمان واستوطنوا جانبًا كبيرًا منها فيسرت لهم فيها اسباب المعيشة وتكاثروا وتموَّلوا جمًّا عزَّت شوكتهم ووفرت ثروتهم على تمادي الايام حتى يستقلوا عن مملكة الانكليز كما استقلت الولايات المتحدة باميركا من قبلهم. ولما كان سكان أوستراليا الاصليين اوطأ اهل الارض قاطبة في مراتب الحضارة واعرقهم في التوحش والهمجيَّة باتفاق السيَّاح وعلماء الاخلاق رأينا ان نذكر هنا طرفًا من اطوارهم وعوائدهم علمًا بان الذين يرغبون في معرفة اخلاق البشر يؤثرون معرفة اخلاق ادناهم على معرفة اخلاق اعلاهم

وصف العلماء اهل اوستراليا الاصليين بسمرة اللون لا سوادهِ وكبر الفم وقبح واكتساء البدن بالشعر الكثيف وقد اختلط اكثرهم بالشعب البابواني الذي دخل بلادهم من كينيا الجديدة شمالاً وبالصينيين الذين لم تزل بعض ادوانهم بينهم وبالملتيين الذين يظهر انهم دخلوا بلادهم من الشمال الغربي قديمًا لصيد الاسماك عن سواحلها. وعثروا على غاية الانحطاط حتى انهم يحسبون ادنى البشر عقلاً ولكن لغتهم تدل على ان عقول واضعيها اسمى من عقول المتكلمين بها وقد قام بينهم شعراء على ما يقال. وللديانة لم ولكنهم يعتقدون بوجود الارواح وببعض الاعمال السحرية. وقد اتضح تناقصهم ومسيرهم الى الانقراض اتضاحًا جليًّا منذ دخل الافرنج بلادهم واسباب انقراضهم هذا مجهولة والمعروف انهم اذا ابدلوا معيشتهم بمعيشة اعلى منها في الحضارة استولى عليهم العقم وامست نساؤهم عواقر لا يلدن الاولاد. ومن الاسباب التي عجلت انقراضهم محاربة الافرنج لهم وقتلهم جانبًا عظيمًا منهم واكسابهم اياهم الرذائل والفواحش فزادتهم بوسًا ووهنًا ومن تلك الاسباب ايضًا قتلهم لاولادهم واعتقادهم ان لا احد يموت حتف انفهِ بل ان من لا يقتل في القتال يموت بسحر عدوهِ. فاذا مات واحد منهم تسلَّح اقرباؤهُ للاخذ بثاره وبعد ما يدفنونهُ يراقبون أول ذبابة او حشرة اخرى تطير عن قبرهِ فيتبعونها حتى تصل بهم الى من يوقعون بهِ اخذًا بالثار قريبهم. واما قتل النساء لاولادهنَّ فليس ناشئًا عن عدم وجود الشفقة في قلوبهنَّ فان الرجال والنساء بينهم مفطورون على الشفقة وسائر العواطف البشرية كغيرهم من الشعوب. ولكنهم يخمدون حاسات الشفقة فيهم فتقتل الام ولدها اذا لم تجد ما تطعمهُ او اذا كان سيِّئ الاطباع او بليدًا ابله او ضعيفًا عاجزًا

ومتى بلغ الفتى منهم سن المراهقة اجتمع اهل قبيلتهِ بابدان مظلَّية بتراب احمر واصفر ومزقة باسنة الرماح او حروف الاصداف كل ممزق على شكل طائرٍ او صورة سمكةٍ او ما شاكل ذلك من الصور

التي تزيدهم فجًا وهولاً ويتقاطرون للرقص واللعب في النادي عراة الاجسام ما خلا احشاءهم التي تكون منطقة . ويمتاز اهل الشجاعة والعياقة بينهم بجلود يلتونها على اكتافهم فان كانوا لا يبالون كثيرًا بالزينة لبسوها كما هي والاَّ فان كانوا من اهل البدخ والزينة غطوها في زيت السمك حتى تتشربه ولوموها انتنت رائحته وعلقوا بها اسنان الحيوانات البرية وعظام الاسماك واذناب الكلاب لكمال الزينة . وبعد ما ينتهون من رقصهم والعابهم العنيفة يهتمون احدى اسنان الفتى فيصير محاربًا كواحد منهم ويحق له اذ ذاك حمل الرمح والترس والتزوج بامرأة . ولاحدَّ عندهم لعدد الزوجات فيتزوَّج الرجل بقدر ما يشاء الاَّان النساء اقلُّ عددًا من الرجال ويتزوج شيوخ القبائل باكثرهنَّ اما مفايضةً بان يصاهروا شيخًا آخر فيصاهرهم او برضى ذوي الفتاة ولذلك يبقى اكثر الشبان عزبًا . ومتى جاز للفتى حمل الرمح والترس فان كان ابن محارب مشهور سهل عليه ان يتزوج امرأة برضى اهلها وان لم يكن ابوهُ مشهورًا يترصَّد فتاةً من قبيلة أُخرى حتى ينفرد بها عن الناس فيفاجئها بالضرب بالهراوة على رأسها ويدنيها حتى تقع على الارض ولا يزال يزيدها ضربًا حتى تغيب عن الصواب وتكاد روحها تزهق فيجرها بشعرها ولا يبالي اذا هشمها الشوك او رضضتها الحجارة حتى يأتي بها الى وجره . فتصير عبدةً له كل ايام حياتها تخدمه وتحمل اولادها وكل الامتعة في الرحيل من مكانٍ الى آخر ويرحل هو فارغ الظهر صفر اليدين وتقضي حياتها اسيرةً لارادته مستعطفة لمرضاته اذ حياتها في يده فاذا غضب عليها طعنها برمحه او قطعها بفاسه ولا حكومة ترُدُّهُ ولا قوَّة تصدُّهُ . وقد حاول مهاجرو الانكليز ان يعدوا آثار الجراح في رؤوس بعض النساء فوجدوا انهُ يكاد لا يوجد موضع في رؤوسهنَّ لم يشدخ بعصي رجالهنَّ

وليس لهؤلاء البرابرة مساكن كمساكن البشر وانما يتوهم اكواخ او كهوف ادنى من اوجرة الضواري وقد قال الرواة ان لخافيق الارض وشقوق الصخور اصلح من اكواخهم كثيرًا للسكنى . والغالب ان كلاًّ منهم يقدر لحاء بعض الاشجار ثم يطوي القشر ويوقفهُ على جانبيه ويجلس تحته وقد يضمون قشرتين او ثلثة معًا بحيث يسكن ستة او ثمانية منهم تحتها . ومع انهم يعيشون جماعات فلا هيئة اجتماعيَّة عندهم ولا حكومة لهم ولا شرائع بل انهم قومٌ فوضى يفعل كل منهم ما شاء ويقضون عمرهم في القتال ولكنهم لا يحاربون حربًا والشائع بينهم في القتال مبارزة الافراد وذلك ان يتقاتل خصمان فيتطاعنان بالرماح او يتضاجَّان على راسيهما بالفؤوس . ويراعون في قتالهم هذا سننًا يحمونها سنن الشرف ويحافظون عليها كما يحافظ اهل الاوربا تمدُّنًا على شرفهِ حتى ان الخصم ليردُّ لخصمهِ رمحهُ اذا رماهُ به واخطأهُ ويعودان الى القتال . على انهم كثيرًا ما تعوزهم الشيمة والانفة كغيرهم من البشر فيسوقهم حب الانتقام الى مفاجاة عدوهم تحت غلس الليل فيقتلونهُ غدرًا ولكن ذلك منكر عند جمهورهم ويؤدي بهم الى قتال طويل اخذًا للثار ونزعًا للعار . ومعظم همهم من الحياة اتقان القتال وادارة الرمح والضرب بالفاس فيكابدون اشدَّ العناء لتعلم

هذه الامور ويبرعون في استعمالها براعة عظيمة فانهم يرمون فيقتلون بالريح عن بعد مئة ذراع . والحتهم كلها من الحجر او الخشب وقشور الاشجار لانهم لا يعرفون المعادن ولا استعمالها . ومن اغرب ما عندهم البُومرنك وهو خشبة طولها نحو عشرين قيراطاً وعرضها قيراطان او ثلثة وسمكها نحو ثلثة ارباع القيراط وهي منحنية من وسطها فيرمونها فتذهب في الهواء في طرق منحنية متجهة جهة افقية مسافةً طويلة ثم تعطف وتعود فتقع عند قدمي راميها . فان لم يكن خبيراً برميها فربما عادت فاصابته والفته صريعاً . وهم يفوقون المتمدنين مهارةً وبراعة في استنباط هذه الاداة والرمي بها

اما الذين يسكنون السواحل منهم فيعيشون بصيد السمك واكثر صيدهم له طعنًا بالرماح وقد يسدون مصبات الانهار او افواه الخلجان لالتقاطه ولكن الذين يعرفون ذلك منهم هم الاذكى قهًا . وسفنهم وسائر ادواتهم على غاية البساطة فالبعض يلتي خشبة في الماء ويركب عليها ويديرها بجذاف والبعض ينقر في جذوع الشجر بفاسه ويتسلق الى اعاليها بوضع ابهام رجليه في النقر ثم ينشر عنها جانبًا من لحائها ويربطه من طرفيه باوتار بعض الحيوانات او غيرها حتى يصير على شكل القارب ثم يلقيه على وجه الماء وينزل فيه . والبعض يحفر خشبة حتى تصير الحفرة تسعهُ فينزل فيها ويديرها في الماء فلاحتهم ابسط انواع الملاحة في العالم . واما الذين يسكنون اواسط البلاد فيعيشون بصيد الحيوانات ويتسلقون في طلبها عالي الاشجار ويقتاتون بجذور الاشجار وبعض الاثمار والدود وسوس الشجر وكانوا كلهم يجهلون الحراثة والزراعة وتربية الحيوانات الداجنة عند دخول الافرنج بلادهم ويقضون ايامهم في تعلم فنون القتال وطلب الرزق بالصيد والقنص ويطوفون في البلاد كالضواري التي لا عقل لها . وقد حاول الانكليز تعليمهم فوجدوا ان عقول بعضهم قابلة للعلم والتهذيب ولكن الانقراض سائد عليهم واما اكثرهم فلم ينجع فيهم علم ولا تهذيب . وارسل الانكليز رجلاً استراليًا الى بلادهم والبسوهُ لباسهم وعودوهُ عوائدهم فتصرف بينهم تصرفًا غير مكروه ولكنهُ لما عاد الى قومهِ نفروا منهُ وجافوهُ على تغير زيهِ وتبدل عوائدهِ فآثر مقاربتهم مع التوحش على مجافاتهم مع التمدن فخلع عنهُ لباس الافرنج واعتقل رمحهُ وحمل فاسهُ وجال عريانًا كسائر قومهِ . ولم يستفيدوا من الافرنج الا ما يستفيدهُ القوم الهمج وهو السكر والسرقة والاستعطاء وهم بارعون في تقليد غيرهم ولذلك تعلموا الانكليزية سريعًا من افواه همج الانكليز وسفلتهم فتراهم يقارعون اشد النوتية سفهًا وبذاء ويقرعونهُ . وذكر المؤرخون ان لهم ميلاً الى التصوير وان كان تصويرهم اسقم من تصوير الاطفال عندنا

فهذه عوائد ادنى اهل الارض عقلاً وحالاً . وقد عنيت حكومة الانكليز بافراد اراضٍ خاصة لهم في هذه الايام والالتفات الى وقايتهم من الافات وتحسين حالهم وتخفيف ويلاتهم لعلها تحفظهم من الانقراض ان كان انقراضهم غير مقدَّر وكان حفظهم مقدورًا